البريد الثقافي

دياب ربيع شجرة زيتون تنمو في "شارلوت"

بقلم : سلمى الزواتي

دياب تلك الشجرة الصلبة الباسقة التي اقتلعتها العواصف العاتية ، عواصف البغي والظلم والارهاب ، يوم كانت غضة يانعة ، فكانت (شارلوت) مقرا جديدا لها ، ورغم ذلك فما زالت تفوح برائحة الارض والوطن الاصلية ، برائحة التربة الزكية التي نشأت بها وعليها رأت نور الحياة * .

في نفس العام الذي ولد فيه شاعرنا المناضل « كمال ناصر » ، ولد شاعرنا الكبير في بئر زيت الحبيبة الصامدة ، ذات الصبر المعجز والغضب المقدس .

وتعفر كلاهما بترابها وتروى الاثنان من مياهها العذبة وجلسا تحت اشجارها الوارفة متمتعين بجمالها الآخاذ وبقيا هكذا الى ان فرقهما الدهر فكانت (نورت كارولينا) مقرا لشاعرنا الاول وكانت الثورة الفلسطينية المسلحة مقرا لشاعرنا الثاني الى آن كتب هذا الاخير بالرصاص يوم ان اطلق مجموعة من الكوماندوس الصهيوني ليلة العاشر من نيسان خمسة عشرة رصاصة في شقته في شارع فردان ببيروت .

وفي مدارس بئر زيت تعلم الشاعران المرحلة الابتدائية والثانوية ولا غرو فقد كانا صديقين حميمين ، لذلك عندما أتحدث عن كمال لا بد وأن اتحدث عن دياب واذا ما تحدثت عن دياب كان لزاما علي ان اتحدث عن كمال .

ولد شاعرنا في بيئة وطنية عرفت قيمة الارض فكان والده فلاحا كبيرا يتبادل الحب مع الارض صباح مساء وكثيرا ما كان يحض شاعرنا على حب الارض والوطن ، ويروي لنا دياب كيف كانوا يستقبلون الثوار المجاهدين من القرى المجاورة من أمثال عطاره وابو قش ودير غسانه وعين سينا (بلدة المناضل الشهيد عبد القادر الحسيني) وغيرها من القرى القريبة من بئر زيت ، ولقد كانت ـ علية ـ والد دياب مقرا لهؤلاء المجاهدين وكثيرا ما كان دياب يجلس اليهم ويحدثهم ويحدثونه وكان يومها في ريعان الصبا حتى ان البندقية كانت تطوله ويقول دياب : « كنت اذهب مع والدي الى ـ وادي البلاط ـ ، وهو واد سحيق تكسوه اشجار الزيتون والسنديان ، لتقديم الماء والغذاء للمجاهدين » . وهناك في وادي البلاط تعلم دياب على فك وتركيب الباروده ، ويشترك دياب في اكثر من عملية عسكرية الى ان وقع اسيرا في ايدي القوات البريطانية ، ولصغر سنه فقد سجنوه في بئر سحيقة كانت معتقلا للاشبال من أمثاله .

ويكبر (دياب ربيع) وتكبر الثورة ويكبر عنفوان الغضب في نفسه الابية وتأتي الحرب العالمية الثانية لتقمع الثورة الفلسطينية المسلحة لاجل غير مسمى وفي اواخر سنة سبع واربعين وتسعماية والف سافر دياب الى الولايات المتحدة في مهمة صحافية لجريدة الشعب آنئي كانت تصدر في يافا آنذاك وهناك التقى دياب بفارس الخوري ممثل سوريا في هيئة الامم المتحدة وكان يزوده بأخبار ومعلومات نشرتها « الشعب » في حينها وكان هذا من الاسباب التي دعت قوات الاحتلال البريطاني الى اغلاق الجريدة المذكورة .

ويبقى شاعرنا في أمريكا عند عمه ينتظر العودة الى بلده فلسطين وكان على اهبة الاستعداد حازما حقائبه مشتاقا الى وطنه .

وتمر الايام سريعا ويبدأ النضال والصراع وذلك بالمواجهة اليومية مع التجمعات والعصابات الصهيونية فعمل محاضرا عن القضية في اكثر من ناد ومقر اجتماعي وهذا ما دفع السلطة ، بالتحريض من الصهاينة ، الى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتهجير شاعرنا المناضل ، ولولا وجود السناتور الامريكي الراحل « كلايد هوي » ممثل نورت كارولينا في مجلس الشيوخ لتم ذلك ، وقد قدم كلايد هوي احتجاجا في احدى جلسات مجلس الشيوخ مطالبا بابقاء دياب في امريكا . ولقد قال السناتور هوي لدياب : « انني اخشى عليك من الصهاينة ، والذي ارجوه لك السلامة وطيب الاقامة وكن على ثقة تامة انك لن تغادر هذا البلد الا على جدثي » .

وتبدأ المسؤوليات بالتراكم حيث الدراسات في القانون والعمل من اجل مساعدة الاخوة الصغار والوالدين الشيخين في الوطن .

ومن هنا عمل شاعرنا بالتجارة ووفق بين الشعر والتجارة ولم تستطع الغربة بقوتها ووحشيتها وجبروتها ان تحني رأس دياب ولكنه بنفسه الكبيرة الابية ذلل الصعاب وحطمها على صخرة صبره وجلده ونضاله وسهره الدؤوب .

لم تستطع الغربة ان تحول بينه وبين اهله وشعبه ووطنه فكان يغني لهم عن بعد كأنه بينهم وحقا فقد كان بينهم بقلبه وجوارحه وهذا يبدو في قصائده الكثر التي نشرتها الصحف العربية في المشرق وفي امريكا من امثال « السمير » لصاحبها الاستاذ « ايليا ابو ماضي » و « البيان » لصاحبها راجي ظاهر .

وحتى نتعرف على دياب الشاعر والمناضل علينا آن نغوص في نفسه ونسبر اعماقه ونقرأ اشعاره المتمردة الغاضبة .

الحقيقة أن الغربة كان لها اثر كبير في نفس الشاعر وان للبعد صدى عميقا في وجدانه فجاءت قصائده مثقلة بالحنين الى الارض والوطن فيقول :

كنت لما شاء لي الدهر النوى ... اتمنى قبل ترحالي ايابي

ويقول

فلسطين الحبيبة هل اراك ... وأهجع بالسنين على ثراك
اعود اليك في عزوات شوق ... واشرب كل يوم من ظماك
واحبس عنك اناتي بقلبي ... أروي غلة نقعت حشاك
أيسكنك الغريب وصرت دارا ... لمن هتك العروبة فادعاك
توحدت القيادة واستعدت ... قيادتها لبيعك او شراك

في الغربة حنين وفي الرجوع الى الوطن ألم حيث الاحتلال البغيض وهنا يرد دياب على صديق له يسأله عن العودة الى فلسطين حيث العودة اليها ميسورة وبالذات من امريكا لأن شاعرنا يحمل وثيقة سفر امريكية فيقول :

أتسألني الرجوع الى بلادي ... وسكناها على مرأى الاعادي
أشاهدها فتجأر في خيالي ... مآسيها وافواه العوادي
وما بعدت وفي قلبي هواها ... ولا قربت وفي الغرب ابتعادي
فكيف اعيش في نفسي بنفسي ... واسمع غير نبضي في فؤادي

وهكذا فجراح الوطن النازفة المعذبة تبدو من غضب الشاعر الاصيل الذي يتسلسل في موسيقاه العذبة ذات الغضب المقدس ، تارة على الاحتلال وتارة على الانظمة الرجعية الفاسدة اساس تهريب الحشيش وبناء القصور الشامخة فيقول :

كم من زعيم فيك يا وصي وكم رجل كفور
فالاجنبي له الصدارة من المجالس والقصور
لكن بنيك محرمون عليك من حق المرور

ويقول ايضا :

اشرب الذل في الحدود ... وغيري يشرب العز والرضا اجنبيا
اسمر تعرف الصحاري ايهابي ... وتحن الرمال فيها اليا

ان القارىء لشعر دياب ربيع وبخاصة المحص والمتفحص ، يجد فيه نغمة عربية صادقة تنم في لبها عن شاعر وحدوي عربي يعيش في قلب الاحداث في اولها لاخرها فجراح فلسطين جرحه الدامي ، وتمزيق الامة العربية والوطن الكبير سهاده الطويل ، وعندما قام جزار عمان سليل بيت الخيانة باكبر مذبحة عرفها القرن العشرون ، يوم ان دك بالمدفعية الثقيلة مخيمات شعبنا الفلسطيني في البقعة والوحدات وجرش . ومأركا والحسين وغيرها الكثير ، وقف دياب ربيع خلف المحيط الاطلسي وارسل هذا الانذار الى العما, القاتل :

يا من طغى ملكا على افراحنا ... اوبعت فيها الحقد والآلاما
يخطفت عن ثغر الزمان مسرة ... كانت عروبتها عليك ذماما
يأتيك يوم بالحساب فتنحني ... خجلا وتأتي تلثم الاقداما
ويدوسك الاحرار تحت نعالهم ... ويعف حتى الدود عنك طعاما
في كل قبر قد حفرت لما جد ... من دون ما تدري حفرت وساما
ليذكر الاجيال بالامل الذي ... خلقت يداك بنوره الاحلاما

دياب ربيع ، عدا كونه شاعرا عربيا مرهفا فهو صاحب رسالة طلائعية تجد في شعره آمال وآلام الامة العربية بوطنها الكبير فالذي يؤلمه هو التمزق والتفريق والذي يأمله هو الوحدة ورأب الصدع والانتباه الى الخطر الكبير الذي يلم بالوطن العربي ، وهنا نجد دياب استاذا يلقي محاضرة في تلاميذه او مهندسا يرسم مخططا لعملية البناء الشامل وفي مفهومي شخصيا لم أجد من امثال دياب ربيع سوى القليل من شعرائنا الذين يشخصون الداء ويضعون الدواء .

فالامة العربية من محيطها الى خليجها تعاني من مشكلة اسمها الخلافات الشخصية وكأن الوطن العربي جسد مصاب بكل الامراض النفسية والخبيثة ففي كل يوم تجد قرحا جديدا ومن النادر ان تجد دولة عربية على حسن جوار مع الدولة المجاورة الاخرى ، وهذا يعود طبعا الى المرض الخبيث الذي ينخر جسم هذا الوطن ولعله حكام هذه الدول الذين لهم أكبر دور في تمزيق هذا الجسد وذلك بالتواطؤ مع الامبريالية والصهيونية العالمية وضرب الاحرار والمناضلين من جهة اخرى ، وهذا هو دياب ربيع الشاعر يشخص الداء ويصف الدواء فيقول :

الوحدة الكبرى وليس بغيرها ... نبني لنا بين الشعوب مقاما
ان كان دجلة لا يفيض بمائه ... من اين يا بردى تبل أوامنا
لن تستقر بنا الحياة عروبة ... الا وبغداد تناجي الشاما
اختان تحتدم القلوب اليهما ... في مصر حبا ايقظ الاهراما

ويقول :

هذي بلادك ايها العربي ... من أمد الدهور
هذي بلادك كنت من نجد ... او القدس الطهور
هل انت غير انا ... وان سموك لبناني وسوري ؟
او أنت غيرك في العراق ... وبين اهلك والحضور ؟
من هذه الدنيا انطلقنا ... امة خلف البحور .

واما عن الحكام السدنة عبيد الامبريالية ، وحراس مصالحها ، المتواطئين مع أعداء عروبتهم وشعوبهم فيقول ايضا :

نحن ابناؤك في محنتنا ... لم نجد اقسى من الأم الرؤوم
لا تلومي مجرما شردنا ... عن حمانا بل ملوك العرب لومي
انعم الله عليهم ثروة ... ضاقت الشهوة عنها بالجسوم

ويقول ايضا :

ساهر ليلي ناجي امة ... قادها نحو الفناء الخوف
زعماء كنت لولا بغيهم ... جنة ما دنستها الوثن
هكذا شاءت حكومات ... وذامتمى من مزقتهم فتن

ومن آخر ما كتب شاعرنا كان عن الخطوة الجبانة التي قام بها رئيب الامبريالية في رحلة العار والخيانة والارتماء تحت احذية العدو الصهيوني ، وكأن رجوع فلسطين لا يكون الا ببيعها ، وكأن الاعتراف بالكيان الصهيوني هو الطريق الحقيقي لارجاع الارض والمقدسات وفي هذا المجال تحدث منذ زمن طويل شاعرنا الكبير ابو سلمى في قصيدته « جراح فلسطين » وكأنه يعلم بما سيحدث او الاصح ان التاريخ يعيد نفسه وان (انور الخيانة) هو ليس الا حلقة من سلسلة من المتآمرين على فلسطين وقضيتها فقال ابو سلمى :

قل لمن اعطوا على الذل ... الا بئس من كان عن العز اشاح
باسم شعبي حكموا لكنهم ظلموه ... ثم يرجون فلاحا
ان تسليم بلادي للعدى ... جعلوا منه انتصارا ونجاحا

وأما شاعرنا دياب ربيع فقد قال :

فلسطين الحبيبة كيف انسى ... هزيمتك التي عقدت بنصر
وكان الظن آن لنا حماة ... تضحي دون عزتها بصخر
« فانور » بات في مصر يغني ... على النغم الذي أودى بمصر
يهودي يساوم في علاها ... وبخطو خطوة الذئب الاشر

ولعل مأساة دياب ربيع المجدده يوميا في المواجهة المجسده مع الاحداث الدامية والتمزيق المتواصل لجسد الامة العربية ، كانت اكثر ايلاما يوم ان وصله خبر استشهاد صديقه الشاعر « كمال ناصر » يوم ان اغتالته يد الاثم والعدوان في بيروت ليلة العاشر من نيسان سنة ثلاث وسبعين وتسعماية والف ، فرثاه بقصيدة رائعة لم تقل روعة عن دماء كمال التي سالت لتكون نورا يضيء الدرب الطويل الشاق لتحرير الارض كل الارض من النهر الى البحر ، لهذا الهدف عاش كمال ورفاقه ولهذا استشهدوا ، ولن يكون لنا سوى البندقية بديلا ، فليسقط المتآمرون وليسقط حملة الاوراق الخاسرة ، وليسقط المقامرون .

والحقيقة ان القصيدة التي قالها دياب ربيع في الشهيد كمال ناصر ، ليست لكمال ، وانما لكل شهيد حمل الرسالة وادى الامانة ، وها هي بعض ابياتها التي تشف عن معاني بعيدة يصعب على القارىء العادي آن يسبر اعماقها :

والله لو كان الخلود مراتبا ... لعلوت فوق خلودك استشهادا
علمتهم حب الديار فدبروا ... لك مصرعا سيذكر الاجيالا
ان العواصف لا تموت وانما ... تطوى ليوم تستفيض عمادا
جنبتك في بحر الزمان قصائد ... كالبحر عمقا لا تلين قيادا
ستظل موجا هادرا لا ينثني ... حتى ترى الوطن السليب معادا

هذا هو دياب ربيع الشاعر ، عرف الغربة والتشرد منذ نعومة اظفاره وعاش آلام وآمال امته وشعبه .

الكويت

* هذه المقالة فصل من كتاب « في ربوع الشمس » الذي سيصدر قريبا للكاتب حلمي الزواتي .

دعوة

شعر : حيدر صالح

أفتح بالوردة ... نجومه
أصباح الصحراء ... من يعتقل الريف البحري ،
وأقود قطيع الاعشاب ... وضوء الفجر الطالع
لنهر جنوني . ... من أفق همومه ؟
احرق أغصان القبلات ... ★
وأنزع عن رأس الافعى ... من يحتفي بالنار ؟
تاج الجمر .. ... بالالق ، الموج
لاصافح برق النسيان . ... وبالاسحار ؟ ...
أغسل جوعي بالبارود ! .. ... من يزرع الاشجار
وأفتح انفاقا للفقراء ... في قلبه
وحزني . ... ويهدم الجدار
من يصغي لحفيف الموت القادم ... ما بيننا والموت ..
في ثوب النوم ؟ ... ويركب الاسفار ؟
من يصنع من أخشاب الوقت

بيروت